المالك البربرية بالمغرب القديم

تكاد تكون الرواية التاريخية القديمة خلوة من ذكر للممالك البربرية وأخبارها، القائمة ببلاد المغرب منذ عهد متقدم؛ يستثنى من ذلك بعض الإشارات الباهتة لأسماء ملوك البربر، دون وصف لهم أو لممالكهم؛ لهذا كانت معرفتنا بهذه الممالك –خاصة في بداياتها- ضعيفة جدا، خاصة وأن الآثار لم تساعدنا في هذا الأمر أيضا.

وعلى كل حال كان نشوء هذه الممالك ذا طابع قبلي محض، لقد كانت القبائل البربرية المتجاورة تتحد في حلف قبلي كبير، لمواجهة أو للهجوم على عدو مشترك، لمصالح آنية تجمعها، كما حدث مع القبائل البربرية الليبية الغازية لبلاد النيل الفرعونية. يقوم هذا الحلف القبلي الآني بتشكيل مجلس شيوخ قبلي، يضع على رأسه قائدا، يتولى حكمه على سبيل الشورى القبلية. ولما ينتهي غرض الحلف يتم الانفصال بين تلك القبائل، وربما عادت لشحنائها القديمة.

لذا يرى البعض أن أعمارها لم تكن بالطويلة، يستثنى من ذلك التحالفات القائمة بين القبائل المشتركة في وحدة جغرافية متشابهة، أو استعملت لهجة لغوية واحدة، ساعدها على شد هذا التحالف. وبطول هذه الوحدة كانت القبائل تتحد في شكل ممالك قوية، ذات فروع قبلية، بقيادة رئيس قبلي قوي، تدعمه ربما سلطة دينية؛ وبهذا ظهرت الممالك القبلية المغربية.

وقد سمت لنا المصادر عددا من هذه القبائل الدول، حيث كان معظمها يمثل حلفا قبليا موسعا، حمل اسما معينا يجمعها، حتى وإن اختلفت أحيانا أصولها النسبية. وقد ذكر هيرودوت بعض هذه الأحلاف الكبرى في الناحية الليبية، الممتدة إلى الناحية التونسية، كـ: النازاموس، وغربهم الماسيليس، ثم الجندنيس، ثم اللوتوفاجيس، ثم الماسيليس، ثم الاوزيس. وكلها قبائل بدوية متنقلة، تمثل لفيفا من التجمعات القبلية الصغرى.

وتستمر هذه القبائل المغربية على طول البلاد إلى غربيها، في سلسلة غير متناهية ، تختلف كبرا وصغرا وقدرتها في المحافظة على أراضيها، وتوسيعها على حساب غيرها.

وانتقلت هذه القبائل من تجمع الأحلاف إلى تجمع الممالك (دولة القبيلة)؛ غير أن هذا الانتقال ليس لنا فيه تاريخا مذكورا لبدئه، وإن كانت المصادر تشير إلى وجود ممالك بربرية منذ عهد الأميرة عليسة وقبلها، أي القرن التاسع (ق.م.)، حيث ورد إسم الإقليد البربري "ياراباس"، ثم يبدأ ظهور الممالك البربرية الكبرى مع بداية التأريخ للحروب القرطاجية. وإذا سلمنا بصحة رواية الملك هيمبصال كانت بداية ظهور هذه الممالك غربا؛ وفي الفترة القرطاجية تواجدت ثلاثة ممالك كبرى ببلاد المغرب.

أ- **المملكة المورية**: وكان يسمي أهلها الإغريق واللاتين بـ "الموروزيين" (*Maurusii*) و "المَاوري" (*Mauri*)، وكذا سماهم البربر أنفسهم. واختلف في أصل هذه التسمية؛ ففي رواية الملك هيمبصال أنهم هم الميديون، النازلون مع القائد هركول، والذين تحول اسمهم على لسان البربر إلى الموري. ويذكر المؤرخ "بوشار" (*Bouchart*) أن أصل الكلمة فينيقي، وهو "مهو حرم" (*Maou Harim*)، وتعني الغربيون أو الساكنون بالغرب.

وأصبحت هذه المملكة تعرف عند الإغريق بـموريتانيا، هذا الاسم الذي سيصبح علما على كل البربر زمن الوندال والبيزنطيين وفي أزمنة أخرى. ويبدو أن هذه المملكة قد ظهرت منذ القرن الرابع (ق.م.)،

وربما قبل ذلك. وقد قامت بربط علاقات مع الممالك المجاورة لها، وخاصة مع قرطاجة. ويذكر لنا في نهاية القرن الثالث (ق.م.) اسم ملكها "باغا" أحد من أعان الملك ماسينسان، ثم ملكها بوخوس صهر الملك يوغرطان.

لقد كانت حدود هذه المملكة –المتغيرة كثيرا- تمتد من المحيط والساحل المتوسطي دون أن تتوغل كثيرا في الداخل، الذي كان منزلا للقبائل الجيتولية القوية، وتنتهي عند نهر الملوية، الذي مثل حدا فاصلا بينها وبين البلاد النوميدية، في أكثر الأوقات وحتى إلى زمن يوغرطان، فيما ذكره سترابون.

ب-**الممالك النوميدية**: أما كلمة نوميدي فهي كلمة تميز أجناسا من البربر، استعملها المؤرخ "بولبيوس"، بل وجدت قبله في القرن الخامس (ق.م.). وكان هذا الاسم علما على كل رجال القبائل البربرية في بلاد المغرب، عدا المتواجدة بالإقليم القرطاجي؛ ثم انكمش معناها فأصبح علما على بربر المنطقة الوسطى من المغرب، بين قرطاجة والموريين، ثم تزداد انكماشا في العهد الروماني بسبب التوسع الإقليمي لموريتانيا. واصل الاسم إغريقي، ويعني "البدو الرحل"، فالاسم علم وصفي اكثر منه علم نسبي أو قبلي.

لقد تأسست من الأحلاف القبلية للبلاد النوميدية مملكتان كبريان منذ القرن الثالث (ق.م.)، وربما قبله، وهما مملكتا الماسيل والماسيسيل، والكلمتان بربريتا الأصل، يعود مفردهما إلى كلمتي"ماسيسول" و"مسيسل"، أو "ماسول" و"ماسيل"؛ فأخذ الإغريق الكلمتين وحرفاها بطرق عدة.

- **الماسيسيل**: هي قبيلة كانت معروفة في البلاد المورية، ذكر "بلين القديم" أنها انقرضت بسبب الحروب، ونزل بلادها الجيتول، ونزح بعضها إلى غرب الجزائر الآن، حيث أسسوا مملكتهم. وبدأ اسمهم يظهر في الكتابات التاريخية منذ الحرب البونية الأولى، وعليهم ملكهم "سفاقص".

وحد سترابون حدود هذه المملكة من نهر الملوية إلى رأس تريتون (*Cap Triton*) وهو رأس بوقرون في الشمال القسطنطيني، وكانت عاصمتها "سيغا" قرب نهر التافنة، ثم تحولت إلى "سرتة". ويذكر سترابون أن هذه المملكة والتي تعادل المغرب الشرقي وثلثي الجزائر كانت غنية جدا، تمول البلاد المغربية وغيرها بالفضة والجنود.

- **الماسيـــــل**: هي قبيلة أيضا لا تعرف منازلها القديمة على وجه التحديد، وإن ذكر إيزيدور الإشبيلي أنها كانت جبال الأطلس المغربي، حيث كانت توجد مدينة ماسليا، ويذكر بلين القديم منازلها بالإقليم الإفريقي. ويبدأ ذكرها في الحرب البونية الأولى، كما عرف ملكها "غايا" في اثناء الحرب البونية الثانية، وقد كان هذا منتسبا في أسرة ملكية عريقة يبدو أنه سبقه فيها عدد من أجداده الملوك. وفيما ذكر سترابون أن حدود هذه المملكة تبدأ من نهاية نهر "لمبساغا" الواقع جنوب غرب رأس تريتون، حيث كان هذا النهر حدا طبيعيا في فترات زمنية أخرى، وتنتهي عند الحدود التونسية لقرطاجة؛ لكنه يبدو أنها انكمشت بعد التوسع القرطاجي على حسابها، فأصبحت لا تمثل إلا الإقليم القسطنطيني الحالي، ثم ستعود للتوسع زمن ماسينيسان، حتى أنها ستحتوي الجنوب والغرب التونسي، وتدخل الناحية الليبية، كل ذلك على حساب الأراضي القرطاجية؛ بل وسيصل ماسينيسان إلى توحيد المملكتين النوميديتين بعد الحرب البونية الثانية (152 ق.م.). وكانت عاصمة المملكة القديمة "هيبورغيوس" أو زاما، ثم ستصبح سيرتة بعد التوسع، وكانت نهايتها بضم روما لأراضيها أثناء توسعها الإمبراطوري سنة 33 (ق.م.).

كانت هذه المملكة أكثر اتحادا، فسكانها أكثر ارتباطا بالأرض، ومدنها أكثر عددا، وبلغت درجة أحسن من غيرها في الحضارة؛ لقربها من التأثير القرطاجي، وتحالفها مع الرومان.

- **قبائل الجيتول**: ظهر جنوب هذه الممالك جنس قوي من قبائل الجيتول المغرقة في البداوة، ويبدو أن اسم هذا الحلف القبلي كان علما لقبيلة واحد توسع ليشمل قبائل أخرى؛ لاشتراكها في المنزل طبيعة الحياة. ورغم قوية هذا الحلف القبلي فإنه لم يسعى لتأسيس مملكة تجمعها لغلبة البداوة عليه؛ فقد كانت منازلها المنطقة الجنوبية الشاسعة الممتدة من أقصى شرقي ليبيا إلى المحيط الغربي، على الحدود الصحراوية المصاقبة لمنازل الإثيوبيين، وكان من أشهر فروعها قبيلة "الأوتولوليس" جنوب البلاد الموريتانية. وقد تعرضت قبائلها لضم الممالك البربرية الشمالية دون قوة ودوام، إذ بقيت ممتنعة عن كل محاولة تحضر.

- **خصوصيات عامة**:

كان المُلك يعود في هذه الممالك إلى الرجل القوي المحارب، وكان ملكه يورث داخل الأسرة المؤسسة لحلف القبيلة أو المملكة، فيتم انتقالا إلى أكبر رجل من زواج شرعي في العائلة المالكة، وهذا التقليد نجده عند الإيبيريين القدماء والوندال؛ فهي تشبه في الحقيقة الحكم القبائلي العشائري المعتمد على شيخ القبيلة وأكبرهم. وكانت المملكة تتشكل من حلف قبلي غير قوي الروابط دائما؛ إذ كثيرا ما كانت تغير القبائل من ولائها لممالك أخرى، وقد يستقل بعضها بذاته. وكان الملك يحمل لقب إقليد، واشتهر من هؤلاء الملوك على وجه الخصوص:

- **سيفاقص:** كان أول الملوك ذكرا، يتربع على مملكة الماسيسيل، قد ربط مع قرطاجة روابط قوية، وصاهرهم، ونافست روما على التحالف معه. وتشبه هذا الملك بالملوك الإغريق، فوضع التاج الحلقي على رأسه، وسك صورته في عملته، التي كان ربما أول من ضربها بالمغرب. لكن مملكته كانت هشة، سرعان ما انهارت بحصار ماسينيسان لعاصمتها.

- **ماسينيسان:** كان أعظم ملوك البربر القدماء، أكثرهم ملكا وأوسعهم أرضا، وأقواهم جيشا، الذي نظمه على الطريقة الرومانية، واحسنهم إدارة لملكه، وأقواهم إقتصادا، اسس أكبر أسرة حاكمة، ملطت البلاد النوميدية مدة قرن، ثم البلاد الموريتانية لأكثر من ستين سنة.

لقد عرفت هذه الممالك البربرية حروبا كثيرة، حروبا محلية أتت في طريق التوسع الذي رسمه لها ملوكها الأقوياء، وفي طريق نزاعاتها القبلية المتجددة؛ لكن مع هذا لم يكن تاريخها بتلك الظلامية التي حاول المؤرخون المحدثون وصفها؛ فقد كانت ممالك ناشئة في وسط قبلي صعب، وحول أعداء وأطماع كثيرة؛ فهي وإن عرفت حروبا في بعض أوقاتها فقد عرفت رخاء وتحضرا وأمنا في بعضها الآخر؛ فهي لا تخرج عن مشابهة أمثالها من الممالك في أثناء التكوين، وروما أوضح مثال على ذلك، على أنها اختصت بصعوبات اجتماعية وطبيعية وجغرافية منعتها من الدوام والارتقاء الحضاري الكامل.

اهـ.